سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مَكِّيَّةٌ، [إِلاَّ آيَتَيْ ٢٨ و٢٩ فَمَدَنِيَّتَانِ]

وَآيَاتُهَا ٥٢ [نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ نُوحٍ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

﴿كِتَٰبٌ﴾: هو كتاب، يعني: السورة، وقرئ: «ليخرج الناس»، والظلمات والنور: استعارتان للضلال والهدى، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بتسهيله وتيسيره، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل للحجاب؛ وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: بدل من قوله: «إلى النور» بتكرير العامل؛ كقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧٥]، ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف؛ كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد، وقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾: عطف بيان للعزيز الحميد؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام؛ لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي تحق له العبادة، كما غلب النجم في الثريا[1]، وقرئ بالرفع على: هو الله، الويل: نقيض الوأل، وهو النجاة اسم معنى، كالهلاك؛ إلا أنه لا يشتق منه فعل؛ إنما يقال: ويلاً له، فينصب نصب المصادر، ثم يرفع رفعها؛ لإفادة معنى الثبات، فيقال: ويل له؛ كقوله: «سلام عليك»، ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل.

فإن قلت: ما وجه اتصال قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالويل؟

قلت: لأنّ المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد، ويضجون منه، ويقولون: يا

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا التعليل لا يتم إلا أن يكون أصله الإله، ثم فُعل فيه ما تقدم أول هذا الموضوع». انتهى. الدر المصون.

ويلاه؛ كقوله: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾: مبتدأ خبره: أولئك في ضلال بعيد، ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين، ومنصوباً على الذمّ، أو مرفوعاً على أعني الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأنّ المؤثر للشيء على غيره، كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر، وقرأ الحسن: «ويصدّون»: بضم الياء، وكسر الصاد، يقال: صدّه عن كذا، وأَصَدَّهُ؛ قال [من الطويل]:

أُنَاسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُ ..... (١)

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدوداً، لتنقله من غير التعدّي إلى التعدّي، وأما صدّه، فموضوع على التعدية كمنعه، وليست بفصيحة كأوقفه؛ لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: ويطلبون لسبيل الله زيغاً واعوجاجاً، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية،/ ١٨١أ والأصل: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل، ﴿فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل.

فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد؟

قلت: هو من الإسناد المجازي، والبعد في الحقيقة للضالّ؛ لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه، ويجوز أن يراد: في ضلال ذي بعد، أو فيه بعد؛ لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

---

(١) أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السواقي في أنوف الحوايم

لذي الرمة، أنشده عنه الفراء، يقال: صده عن كذا، ولغة كلب: أصده عنه إذا منعه، فوضع الصدود موضع الإصداد. والسواقي ـ بالفاء ـ: الرياح، لأنها تسفو التراب. وقيل: هي بالقاف جمع ساق أو ساقية، وهي فوق الجدول. والحوايم: الجمال العطاش؛ لأنها تحوم حول الماء جمع حايم، ويطلق على طير إذا اشتد عطشه حام حول الماء، فإذا ناله سقط ريشه فيغرق فيه. وجمعه حوايم أيضاً. ويجوز أن يراد هنا، أو الجبال لأنها لارتفاعها تشرف من بعد كأنها حايمة، أو لأن الطير يحوم فوقها فنسبة الفعل إليها مجاز لأنها محله، يقول: قوم منعوا الناس عن أنفسهم بالسيف لمنع الرياح وضربها في أنوف الجمال، أو في أعالي الجبال، أو كمنع السقاة إبل غيرهم عن إبلهم في السقي، أو كمنع الأنهار لبعد مائها الإبل العطاش أو الطيور العطاش عن الشرب، لأن الطيور تخاف الغرق فيه. ويروى: عن أنوف الحوايم. وفيه تشبيه الأعداء بالعطاش وأصحاب السيوف، أو السيوف بالرياح ضمناً.

ينظر: الدر المصون (٤/ ٢٥١).

﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله[1]، ولا يقولوا: لم نفهم ما خوطبنا به؛ كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم؛ وإنما بعث إلى الناس جميعاً، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، بل إلى الثقلين، وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية، لم تكن للعرب حجة، أيضاً؟

قلت: لا يخلو، إمّا أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمّة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة[2]، والأمم المتخلفة، والأجيال المتفاوتة، على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها ـ مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلا بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربيّ كل أمّة بلسانها كما كلم أمّته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً ـ لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء، ومعنى: (بلسان قومه): بلغة قومه، وقرئ: «بلسن قومه»، واللسن واللسان: كالريش والرياش، بمعنى: اللغة، وقرئ: «بلسن قومه»: بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة، وهو جمع لسان، كعماد وعمد وعمد على التخفيف، وقيل: الضمير في قومه

---

(١) قال محمود: «أي ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة... إلخ» قال أحمد: جميع الفصل مرضي، لكن في هذه الخاتمة نظر، لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة يتقاصر عن إعجازه، لو قدر منزل بكل لسان، حتى إنه لو ينزل بجميع اللغات لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون إلجاء إلى الإيمان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متعين؛ لأن المعجز يفيد العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح، فلو نزل القرآن بجميع اللغات، لكان العلم الحاصل منه وقد نزل بلغة واحدة، هو العلم الحاصل منه لو نزل بالجميع، لا تفاوت ولا ترجيح بين العلمين، هذا هو التحقيق، والله أعلم. والزمخشري يبني في كثير من كلامه على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجلى، وهو من الحق بمعزل، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

(٢) قوله: «والأقطار المتنازحة» أي المتباعدة جدا. أفاده الصحاح (ع).

لمحمد ﷺ ورووه عن الضحاك، وأن الكتب كلها نزلت بالعربية، ثم أدّاها كل نبيّ بلغة قومه، وليس بصحيح؛ لأنّ قوله ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب، فيؤدّي إلى أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب، وهذا معنى فاسد، ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ كقوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ لأنّ الله لا يضلّ إلا من يعلم أنه لن يؤمن، ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن، والمراد بالإضلال: التخلية ومنع الألطاف[1]، وبالهداية: التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: فلا يغلب على مشيئته، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ بمعنى: أي أخرج؛ لأنّ الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له: أخرج، ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل؛ وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر؛ لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية، والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل: قولهم أوعز إليه بأن افعل، فأدخلوا عليها حرف الجر؛ وكذلك التقدير بأن أخرج قومك، ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾: وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم: قوم نوح، وعاد، وثمود، ومنه أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها، كيوم ذي قار، ويوم الفجار، ويوم قضة وغيرها، وهو الظاهر، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نعماؤه وبلاؤه، فأمّا نعماؤه: فإنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وفلق لهم البحر، وأمّا بلاؤه: فإهلاك القرون، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر، وقيل: أراد لكل مؤمن؛ لأنّ الشكر والصبر من سجاياهم؛ تنبيهاً عليهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

---

(١) قوله: «والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فخلق الضلال في القلب، لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة، ويخلقه كالخير عند أهل السنة (ع).

﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾: ظرف للنعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامه عليكم ذلك الوقت.

فإن قلت: هل يجوز أن ينتصب بعليكم؟

قلت: لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية، فإذا كان صلة لم يعمل فيه، وإذا كان غير صلة، بمعنى: اذكروا نعمة الله مستقرّة عليكم عمل فيه، ويتبين[1] الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت: نعمة الله عليكم، فإن جعلته صلة، لم يكن كلاماً حتى تقول فائضة أو نحوها، وإلا كان كلاماً، ويجوز أن يكون «إذ»: بدلاً من نعمة الله، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهومن بدل الاشتمال.

فإن قلت: في سورة البقرة: (يذبحون)، وفي الأعراف: (يقتلون)، وههنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ مع الواو، فما الفرق؟

قلت: الفرق: أنّ التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت جعل التذبيح؛ لأنه أوفى على جنس العذاب، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر.

فإن قلت: كيف كان فعل/ ١٨١ب آل فرعون بلاء من ربهم؟

قلت: تمكينهم وإمهالهم، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من الله، ووجه آخر وهو: أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً، قال تعالى: ﴿ونبولكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء: ٣٥]؛ وقال زهير [من الطويل]:

. . . . . فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو[2]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾: من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠]، كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم، ومعنى تأذن ربكم: أذن ربكم، ونظير تأذن وأذن: توعد وأوعد، تفضل وأفضل، ولا بدّ في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه، والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾، أو أجرى (تأذن): مجرى؛ قال: لأنه ضرب من القول، وفي قراءة ابن مسعود: «وإذ قال ربكم لئن شكرتم»، أي: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح،

---

(١) قوله: «ويتبين» لعله: وتبين (ع).

(٢) تقدم.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾: وغمطتم[1] ما أنعمت به عليكم، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾: لمن كفر نعمتي.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾: إن كفرتم أنتم يا بني إسرائيل والناس كلهم؛ فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بدّ لكم منه وأنتم إليه محاويج، والله غني عن شكركم، ﴿حميدٌ﴾: مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، وإن لم يحمده الحامدون.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: جملة من مبتدأ وخبر، وقعت اعتراضاً[2]: أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح، و﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: اعتراض، والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعني: أنهم يدّعون علم الأنساب، وقد نفى الله علمها عن العباد، ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل[3]؛ كقوله: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: هذا جوابنا

---

(١) قوله: «وغمطتم ما أنعمت به عليكم» في الصحاح «غمط الشيء» بطره وحقره (ع).

(٢) قال السمين الحلبي: وردَّ عليه الشيخ بأن الاعتراض إنما يكون بين جزئين، أحدهما يطلب الآخر، ولذلك لما أعرب الزمخشري «والَّذين» مبتدأ، و«لاَ يَعْلَمُهُمْ» خبره، قال: «والجملة من المبتدأ والخبر اعتراض». واعترضه الشيخ أيضاً بما تقدم، ويمكن أن يجاب عنه في الموضعين: بأن الزمخشري يمكن أن يعتقد أن «جَاءَتْهُمْ» حال مما تقدم، فيكون الاعتراض واقعاً بين الحال وصاحبها وهذا كلام صحيح. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «معناه عضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل... إلخ» قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك لأن إقناطهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلاً بوضع اليد في الفم، هو المناسب لحسدهم في الكفر. وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد وليس السياق بمناسب للضحك ولا الغيظ ولا لتصميت الرسل كمناسبته لإقناطهم من القبول. ألا ترى أنهم لما أعادوا للرسل القول ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دل على أنهم لم يسكتوهم أولاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

لكم ليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكون، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدي، جمع: يد، وهي النعمة بمعنى: الأيادي، أي: ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم، وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم؛ لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل، ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ﴾: من الإيمان بالله، وقرئ: «تدعونا»: بإدغام النون، ﴿مُرِيبٖ﴾: موقع في الريبة أو ذي ريبة، من أرابه، وأراب[1] الرجل، وهي قلق النفس وألاّ تطمئن إلى الأمر.

﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾

﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾: أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام ليس في الشك؛ إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه، ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة؛ كقوله: دعوته لينصرني، ودعوته ليأكل معي؛ وقال [من المتقارب]:

دَعَوْتُ ـ لِمَا نَابَنِي ـ مِسْوَراً فَلَبَّى فَلَبَّى يَدَيْ مِسْوَرِ[2]

---

(١) قوله: «وأراب الرجل» لعله: أو أراب (ع).

(٢) لأعرابي من بني أسد. ولبى: بمعنى أجاب، ورسمه ابن حبيب بالألف وإن كان يائياً للفرق بينه وبين المثنى بعده. ولبى من الأسماء اللازمة للإضافة إلى الضمير، وشذ إضافته للظاهر كما هنا، من لب بالمكان لبا أقام به والمراد ملازمة إجابته إجابة بعد إجابة لا اثنين فقط، وهو منصوب على المصدرية بفعل محذوف. هذا مذهب سيبويه. وزعم يونس أنه مفرد مقصور، قلبت ألفه مع الضمير ياء كلدى وعلى، فرد عليه سيبويه بأنه لو كان كذلك لم تنقلب ألفه مع الظاهر ياء كلدى وعلى، لكنهم لما أضافوه للظاهر قلبوها ياء كما في البيت. يقول: دعوت مسوراً لما أصابني، فأجابني فلبى يديه، أي أجاب الله دعاءه إجابة بعد إجابة، وأقحم اليدين لأنهما يرفعان عند الدعاء، فكأنهما المجابتان؛ أو لأن نصره حصل بهما، ففيه إشارة إلى أنه أنقذه. وقيل: إنه دعاه ليغرم عنه الدية، فأجابه، فذكر يديه لأنه بذل بهما. قيل: وكانت عادة العرب ذلك فنهى عنه. روي عن رسول الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال: إذا دعا أحدكم أخاه فقال: لبيك، فلا يقولن لبى يديك، وليقل أجابك الله بما تحب.
ينظر: الدرر ٣/ ٦٨، شرح التصريح ٢/ ٣٨، شرح شواهد المغني ٢/ ٩١٠، لسان العرب (لبى)، =

فإن قلت: ما معنى التبعيض في قوله: من ذنوبكم؟

قلت: ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين؛ كقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣، ٤]، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقال في خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد، وقيل: أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره، يبلغكموه إن آمنتم، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت، ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾: ما أنتم، ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: لا فضل بيننا وبينكم، ولا فضل لكم علينا، فلم تخصون بالنبوّة[1] دوننا، ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً، لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة[2]، ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: بحجة بينة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج؛ وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون: أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم؛ ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً

= المقاصد النحوية ٣/ ٣٨١، وأوضح المسالك ٣/ ١٢٣، خزانة الأدب ٢/ ٩٢، ٩٣، سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٤٧، شرح أبيات سيبويه ١/ ٣٧٩، شرح الأشموني ٢/ ٣١٢، شرح ابن عقيل ص (٣٨٣، ٣٨٥)، الكتاب ١/ ٣٥٢، المحتسب ١/ ٧٨، ٢/ ٢٣، مغني اللبيب ٢/ ٥٧٨، همع الهوامع ١/ ١٩٠، الدر المصون ٣/ ٦٣.

(١) عاد كلامه. قال: «وقولهم إن أنتم إلا بشر مثلنا: معناه فلم تخصون بالنبوة دوننا؟ ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة»؟ قال أحمد: ومن تهالكه على الانتصار لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون كمعتقد القدرية في تفضيل الملك على الرسول، لأنه يدعي ذلك أمراً مركوزاً في الطباع معلوماً ضرورة، والله الموفق.

(٢) قوله: «لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» هذا على مذهب المعتزلة، أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل (ع).

منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: بالنبوّة؛ لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق/ ١٨٢أ بمشيئة الله، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوليًا وأمروها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾ ومعناه: وأيّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾: وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين.

فإن قلت: كيف كرّر الأمر بالتوكل[1]؟

قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾: ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم، وإما عودكم حالفين[2] على ذلك.

فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها.

قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى: الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه عادلاً يكلمني، ما عاد لفلان مال، أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد، ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول؛ لأنه ضرب منه، وقرأ أبو حيوة: «ليهلكنّ»، «وليسكننكم»: بالياء اعتباراً لأوحى، وأن لفظه لفظ الغيبة؛ ونحوه قولك: أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن، والمراد بالأرض، أرض الظالمين وديارهم؛ ونحوه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ

---

(١) قال محمود: «إن قلت كيف كرر ذلك بعد قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾... إلخ» قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادي «من قتل قتيلاً فله سلبه» والله أعلم.

(٢) قوله: «حالفين» حال من فاعل قال: وعبارة النسفي «وحلفوا» (ع).

وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وعن النبي ﷺ: «مَنْ آذَىٰ جَارَهُ وَرَّثَهُ الله دَارَهُ» (٨٠٩)، ولقد عاينت هذا في مدة قريبة: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنها منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يتردّدون فيها ويدخلون في دورها، ويخرجون، ويأمرون وينهون، فذكرت قول رسول الله ﷺ وحدّثتهم به، وسجدنا شكراً لله، ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين، وإسكان المؤمنين ديارهم، أي: ذلك الأمر حق، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾: موقفي وهو موقف الحساب؛ لأنه موقف الله الذي يقف[1] فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام، وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله، والمعنى: أنّ ذلك حق للمتقين؛ كقوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾: واستنصروا الله على أعدائهم، ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]: أو استحكموا الله، وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة؛ كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهو معطوف على: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ وقرئ: «واستفتحوا»: بلفظ الأمر، وعطفه على: (لنهلكنّ)، أي: أوحى إليهم ربهم، وقال لهم: لنهلكنّ، وقال لهم: استفتحوا، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: فنصروا وظفروا وأفلحوا، وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل، ظنًّا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه، ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾: من بين يديه، قال [من الوافر]:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ[2]

---

٨٠٩ ـ بيض له الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٢/١٩٩)، وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

---

(١) قوله: «يقف فيه عباده» في الصحاح: يتعدى ولا يتعدى (ع).

(٢) يؤرقني اكتئاب أبي نمير ... فقلبي من كآبته كئيب
فقلت له: هداك الله مهلاً ... وخير القول ذو اللب المصيب
عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

لهدبة بن خشرم العذري. ويروى: خرشم، وكان مسجوناً للقتل. والتأريق: التسهير، والاكتئاب: الانكسار وتغير اللون من الحزن، والكآبة كذلك. وأبو نمير كان صديقاً له، فزاره ذلك السجن =

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا؛ لأنه مرصد لجهنم، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف.

فإن قلت: علام عطف: ﴿وَيُسْقَىٰ﴾؟

قلت: على محذوف تقديره: من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد، كأنه أشد عذابها، فخصص بالذكر مع قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

فإن قلت: ما وجه قوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؟

قلت: صديد عطف بيان لماء، قال: (ويسقى من ماء)، فأبهمه إبهاماً، ثم بينه بقوله: (صديد)، وهو ما يسيل من جلود أهل النار، ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: يتكلف جرعه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾: دخل كاد للمبالغة، يعني: ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون الإساغة؛ كقوله: ﴿لَّمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]، أي: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها؟ ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾: كأنّ أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه[1] وأحاطت به من جميع الجهات، تفظيعاً لما يصيبه من الآلام، وقيل: (من كل مكان): من جسده حتى من إبهام رجله، وقيل: من أصل كل شعرة، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: ومن بين يديه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشدّ مما قبله وأغلظ، وعن الفضيل: هو قطع

= وحزن عليه. ومهلاً: مصدر بدل من اللفظ بفعله. وخبر القول: جملة اعتراضية في أثناء مقول القول. واللب: العقل. وعسى الكرب: تتمة مقول القول. ويروى: أمسيت، بالضم والفتح. وقال الجوهري «وراء» يأتي بمعنى خلف، وقد يأتي بمعنى قدام، فهو من الأضداد اهـ؛ لأنه ما وراء الشخص بجرمه عن نفسه أو عن غيره، ومواراته عن نفسه لا يمكن إلا في الخلف، فكثر فيه. أو هو مكان المواراة مطلقاً، وهو في الخلف أكثر. واسم «يكون» ضمير الكرب، ووراءه متعلق بمحذوف خبر ليكون، و«فرج» فاعل بالظرف. ويجوز أن «فرج» مبتدأ و«وراءه» متعلق بمحذوف خبر له، والجملة خبر ليكون، ويجب كون المحذوف كوناً تاما لا ناقصاً؛ لئلا يحتاج إلى تقدير محذوف أيضاً، فيتسلسل التقدير، ولم يجعل «فرج» مرفوع بيكون؛ لأن خبر أفعال المقاربة لا يرفع الأجنبي عن أسمائها. وجملة «يكون» خبر ليس، وتجريد خبرها من «أن» قليل أي عسى أن يحصل الفرج بعد الكرب.

ينظر خزانة الأدب ٩/٣٢٨، ٣٣٠، وشرح أبيات سيبويه ١/١٤٢، والدرر ٢/١٤٥، وشرح التصريح ١/٢٠٦، وشرح شواهد الإيضاح ص ٩٧، وشرح شواهد المغني ص ٤٤٣، والكتاب ٣/ ١٥٩، واللمع ص ٢٢٥، والمقاصد النحوية ٢/ ١٨٤، وأسرار العربية ص ١٢٨، وأوضح المسالك ١/ ٣١٢، وتخليص الشواهد ص ٣٢٦، وخزانة الأدب ٩/ ٣١٦، والجنى الداني ص ٤٦٢، وشرح ابن عقيل ص ١٦٥، وشرح عمدة الحافظ ص ٨١٦، والمقرب ١/ ٩٨، وشرح المفصل ٧/ ١١٧، ١٢١، ومغني اللبيب ص ١٥٢، والمقتضب ٣/ ٧٠، وهمع الهوامع ١/ ١٣٠ والدر المصون ١/ ٥٢٦.

(١) قوله: «قد تألبت عليه» أي تجمعت. أفاده الصحاح (ع).

الأنفاس وحبسها في الأجساد، ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي: استمطروا ـ والفتح المطر ـ في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله ﷺ فلم يسقوا؛ فذكر سبحانه ذلك، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد، وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر، وهو صديد أهل النار، واستفتحوا ـ على هذا التفسير ـ: كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: وفيما يقص عليك، ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾: والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾: جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل/ ١٨٢ب: أعمالهم كرماد، ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا بربهم، أو هذه الجملة خبراً للمبتدأ، أي: صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد؛ كقولك: صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، أو يكون أعمالهم بدلاً من: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر، وقرئ: «الرياح»، ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾: جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح؛ كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة؛ وإنما السكور لريحها[1]، وقرئ: «في يوم عاصف»: بالإضافة، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفداء الأساري، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجازة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به، وكونها لوجه: برماد طيرته الريح العاصف، ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾: يوم القيامة، ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾: من أعمالهم، ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: بالحكمة والغرض الصحيح[2]، والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾

---

(١) قوله: «وإنما السكور لريحها» في الصحاح: سكرت الريح، تسكر سكوراً: سكنت بعد الهبوب (ع).

(٢) قال محمود: «معناه خلقها بالحكمة والغرض الصحيح... إلخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي وقد تقدمت أمثاله.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

وقرئ: «خالق السموات والأرض»، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: هو قادر على أن يعدم الناس، ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم؛ إعلاماً منه باقتداره على إعدام الموجود، وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾: بمتعذر، بل هو هين عليه يسير[1]؛ لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف، تكوّن من غير توقف: كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف؛ وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله؛ لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه هو الحقيق بأن يعبد، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ﴾: ويبرزون يوم القيامة؛ وإنما جيء به بلفظ الماضي؛ لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا لصدقه كأنه قد كان ووجد؛ ونحوه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: ونظائر له، ومعنى بروزهم لله ـ والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له ـ: أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون أن ذلك خاف على الله، فإذا كان يوم القيامة، انكشفوا لله عند أنفسهم، وعلموا أنّ الله لا يخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

فإن قلت: لم كتب: ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾: بواو قبل الهمزة؟

قلت: كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو؛ ونظيره: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، والضعفاء: الأتباع والعوام، والذي استكبروا: ساداتهم وكبراؤهم، الذين استتبعوهم واستغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم، ﴿تَبَعًا﴾: تابعين: جمع تابع على تبع؛ كقولهم: خادم وخدم، وغائب

---

(١) عاد كلامه. قال: معناه وما ذلك على الله بعزيز، أي: هين عليه، لأنه قادر بالذات... إلخ... قال أحمد: وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله، خلص له الداعي وأمضى الصارف، وما أنباه عن سمع المحققين العارفين بآداب الله تعالى وبما يجب في حق جلاله، وقد تقدم ما فيه كفاية.

وغيب[1]، أو ذوي تبع، والتبع: الأتباع، يقال: تبعه تبعاً.

فإن قلت: أي فرق بين من في: ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾، وبينه في: ﴿مِن شَيْءٍ﴾؟

قلت: الأولى: للتبيين، والثانية: للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعيض معاً، بمعنى: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أي: بعض بعض عذاب الله؟

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾؟

قلت: الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم[2]، وعتاباً على استتباعهم واستغوائهم، وقولهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾: من باب التبكيت؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم، فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم: بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم، ولم يضلوهم، إما موركين الذنب[3] في ضلالهم وإضلالهم على الله، كما حكى الله عنهم وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا؛ ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨]، وإما أن يكون المعنى: لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا، لهديناكم إلى الإيمان، وقيل: معناه: لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة، كما سلكنا بكم طريق الهلكة،

---

(١) قوله: «خادم وخدم وغائب وغيب» في الصحاح: وإنما ثبتت فيه الياء في التحريك، لأنه شبه بصيد وإن كان جمعاً، وصيد مصدر قولك «بعير أصيد» لأنه يجوز أن ينوى به المصدر (ع).

(٢) قال محمود: «الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم... إلخ» قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتملة على أن الله تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هداية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتدوا. وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء. والمقصود من اقتصاصه: إنذار أمثالهم في الدنيا، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى، فلما فطن الزمخشري لذلك شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة كما خطأهم في الدنيا، ليتم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء، ومن ذلك هداية الكفار فإن الله تعالى يشاؤها في الدنيا، لكنها لم تكن. وأنى له ذلك، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه في الدنيا، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة، إذ لا ينجع، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق في دار الحق، وحيث لا ينفعه إيمانه، فيقول: إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم... إلخ. وإنما سيق تحذيراً وإنذاراً اتفاقاً، والله الموفق.

(٣) قوله: «موركين الذنب» في الصحاح: ورك فلان ذنبه على غيره، أي: قرفه به اهـ، أي: اتهمه به (ع).

﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾: مستويان علينا الجزع والصبر، والهمزة وأم للتسوية؛ ونحوه: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦]. وروي أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك ثم يقولون: سواء علينا.

فإن قلت: كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟

قلت: اتصاله به من حيث أنّ عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه، فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، يريدون: أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطمّ، أو لما قالوا: لو هدانا الله طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقناط من/ ١٨٣أ النجاة فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: منجى ومهرب، جزعنا أم صبرنا، ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنه قيل: قالوا: جميعاً: سواء علينا؛ كقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف: ٥٢]، والمحيص: يكون مصدراً، كالمغيب والمشيب، ومكاناً، كالمبيت والمصيف، ويقال: حاص عنه وجاض، بمعنى واحد.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار، وروي أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً[1] في الأشقياء

---

(١) قال محمود: «روي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً... إلخ» قال أحمد: قد حمل قول الكفار في الآية الأولى على إبطال الانتحال، لأنه لا يلائم معتقده، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع ولا متعذر بقوله تعالى ﴿يَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه وإن كان قائله الشيطان؛ كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه وأية سلك. ونحن معاشر أهل السنة الملقبين، عنده بالمجبرة نقول: إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له، ولا مخطىء فيه الشيطان، كما اقتص كلام الكفار في الآية الأولى كذلك. ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك. وحجته البالغة، وقضاؤه الحق. وذلك أنا نعترف بما خلقه الله تعالى للعبد من الاختيار الذي يجده من نفسه عند تجاذب طرفي الأفعال الإرادية ضرورة؛ وبذلك قامت الحجة له على خلقه، وإن سلبنا =

من الجنّ والإنس فيقول ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾: خلاف ذلك، ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾: إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان؛ ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾؛ حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم، وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه[1]، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم؛ فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به.

قلت: لو كان هذا القول منه باطلاً، لبين الله بطلانه، وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾: لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ: الإغاثة، وقرئ: «بمصرخيّ»: بكسر الياء، وهي ضعيفة؛ واستشهدوا لها ببيت مجهول [من الرجز]:

قَالَ لَهَا: هَلْ لَكِ يَاتَا فِيّ؟ قَالَتْ لَهُ: مَا أَنْتَ بِالْمَرْضِيّ[2]

= عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف، والله الموفق.

(١) قوله: «يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه» هذا مذهب المعتزلة، وقوله: «المجبرة» يعني أهل السنة، ومذهبهم أن الله هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب الشقاوة، لكن العبد له فيها الكسب. ومن هذا يتوجه عليه اللوم، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إن العبد هو الخالق لها، وهو الذي يحصل لنفسه. وتحقيقه في علم التوحيد (ع).

(٢) قال لها: هل لك يا تا فيّ؟ قالت له: ما أنت بالمرضي
ماض إذا ما هم بالمضي
قائله مجهول. وتا: اسم إشارة، أي: هل لك يا هذه المرأة رغبة في. وأصل ياء المتكلم السكون، فإن حركت فبالفتح، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساغ كسرها، على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين. وقالت: استئناف، كأنه قيل له: فماذا قالت؟ فقال: قالت له لست مرضياً، فإنك رجل ماض في كل أمرتهمّ فيه، فماض: خبر لمبتدأ محذوف. والجملة: استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا. وعبر بضمير الغيبة في قوله: هم نظراء للخير. ويجوز تقدير المبتدأ =

وكأنه قدّر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة، فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح؛ لأنَّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة؛ حيث قبلها ألف في نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياء؟

فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح؛ لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحرّكت بالكسر على الأصل.

قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات، «ما» في: ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾: مصدرية، و﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلقة بأشركتموني، يعني: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم، أي: في الدنيا؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤] وقيل: (من قبل): يتعلق بكفرت، وما: موصولة، أي: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه، وهو الله ـ عزّ وجلّ ـ تقول: شركت زيداً، فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركنيه فلان، أي: جعلني له شريكاً، ونحو «ما» هذه «ما» في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان[1] وغيرها، وهذا آخر قول إبليس، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قول الله ـ عزّ وجلّ ـ ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس؛ وإنما حكى الله ـ عزّ وعلا ـ ما سيقوله في ذلك الوقت؛ ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم، والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم، وقرئ: «فلا يلوموني»: بالياء على طريقة الالتفات؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «وأدخل الذين آمنوا»[2]: على فعل المتكلم، بمعنى:

= لفظ «هو» فيكون التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة، دلالة على الإعراض عنه، وذكر السبب لغيره.
البيت للأغلب العجلي في ديوانه ص ١٦٩، حاشية يس (٢/ ٦٠)، خزانة الأدب (٤/ ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧)، وبلا نسبة في شرح عمدة الحافظ (ص ٥١٣)، المحتسب (٢/ ٤٩).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ومَنْ منع ذلك جعل» «سبحان» علماً للتسبيح، كما جعل «برّة» علماً للمبرّة. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم... إلخ» قال =

وأدخل أنا، وهذا دليل على: أنه من قول الله، لا من قول إبليس، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بأدخل، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره.

فإن قلت: فيم يتعلق في القراءة الأخرى، وقولك: وأدخلهم أنا بإذن ربهم، كلام غير ملتئم؟

قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بما بعده، أي: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: بإذن ربهم، يعني: أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قرئ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ساكنة الراء، كما قرئ: «من يتق»، وفيه ضعف، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾: اعتمد مثلاً ووضعه، و﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: نصب بمضمر، أي: جعل كلمة طيبة، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وهو تفسير لقوله: (ضرب الله مثلاً)؛ كقولك: شرّف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس، ويجوز أن ينتصب (مثلاً)، و(كلمة): بضرب، أي: ضرب كلمة طيبة مثلاً، بمعنى: جعلها مثلاً، ثم قال: (كشجرة طيبة): على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هي كشجرة طيبة، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يعني: في الأرض، ضارب بعروقه فيها، ﴿وَفَرْعُهَا﴾: وأعلاها ورأسها، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾، ويجوز أن يريد: وفروعها، على الاكتفاء بلفظ الجنس، وقرأ أنس بن مالك: «كشجرة طيبة ثابت أصلها». / ١٨٣ب

فإن قلت: أيّ فرق بين القراءتين؟

قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأنّ في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأنّ المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل، والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد، وقيل: كل كلمة حسنة كالتسبيحة، والتحميدة، والاستغفار، والتوبة، والدعوة، وعن ابن عباس: شهادة أن

= أحمد: فإن قلت: ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، وألجأه إلى تعليقه بما بعده، وقد كانت له في ذلك مندوحة، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ ولم يقل تنزيلاً منا. قلت: لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه، وهو أن ظاهر (أدخل) بلفظ المتكلم، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة، بل من الله تعالى مباشرة، وظاهر الإذن يشعر بإضافة الدخول إلى الواسطة، فبينهما تنافر، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين، والخلود غير الدخول، فلا تنافر، والله أعلم.

لا إله إلا الله، وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار، كالنخلة، وشجرة التين، والعنب، والرمّان، وغير ذلك، وعن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلَ المُؤْمِنِ شَجَرَةً فَأَخْبِرُونِي مَا هِيَ» ح، فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًا، فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم، وروي: فمنعني مكان عمر واستحييت، فقال لي عمر: يا بنيّ، لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليّ من حمر النعم، ثم قال رسول الله ﷺ: «أَلا إِنَّهَا النَّخْلَةُ» (٨١٠). وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: شجرة في الجنة، وقوله: (في السماء) معناه: في جهة العلوّ والصعود، ولم يرد المظلة؛ كقولك في الجبل: طويل في السماء: تريد ارتفاعه وشموخه، ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾: تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾: بتيسير خالقها وتكوينه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: كمثل شجرة خبيثة، أي: صفتها كصفتها، وقرئ: «ومثل كلمة بالنصب»: عطفاً على كلمة طيبة، والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك، وقيل: كل كلمة قبيحة، وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث[1]، ونحو ذلك، وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾: في مقابلة قوله: (أصلها ثابت)، ومعنى: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾: استؤصلت، وحقيقة الاجتثاث: أخذ الجثة كلها، ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: استقرار، يقال: قرّ الشيء قراراً؛ كقولك: ثبت ثباتاً، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت والذي لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه، من قولهم: الباطل لجلج[2]، وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في كلمة خبيثة؟ فقال: ما

---

٨١٠ ـ أخرجه البخاري (٩/ ٤٨١) كتاب الأطعمة باب أكل الجمار حديث رقم (٥٤٤٤)، ومسلم (٩/ ١٦٧ ـ ١٦٨) نووي، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب مثل المؤمن حديث رقم (٢٨١١).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
متفق عليه وله ألفاظ. انتهى.

---

(١) قوله: «والكشوث» في الصحاح الكشوث نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض. قال الشاعر [من البسيط]:
هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمرُ (ع)

(٢) قوله: «من قولهم: الباطل لجلج» في الصحاح: الحق أبلج، والباطل لجلج، أي: يردد من غير أن ينفذ (ع).

أعلم لها في الأرض مستقرًا، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها القيامة.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما، وتثبيتهم في الآخرة، أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم، لم يتلعثموا ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر، وقيل: معناه: الثبات عند سؤال القبر، وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثُمَّ يُعَادُ روحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ وَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ الله، وَدِينِيَ الإِسْلاَمُ، وَنَبِيي مُحَمَّد، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَذٰلِكَ قَوْلُهُ: يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ[1]» (٨١١)، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم؛ وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل، ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ما توجبه الحكمة؛ لأن مشيئة الله تابعة للحكمة، من تثبيت المؤمنين وتأييدهم، وعصمتهم عند

---

٨١١ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ٢١٣) كتاب الجنائز باب الجلوس عند القبر حديث (٣٢١٢) من طريق المنهال ابن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب.

وقال الحافظ في تخريج الكشاف:

هذا طرف من حديث له طويل، أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبي شيبة وأبو يَعلى من رواية سعد بن عبيدة عند البخاري مرفوعاً في قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ قال: نزلت في عذاب القبر: يقال له: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربي الله. ونبيي محمد ﷺ، وذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا... الآية﴾. انتهى.

---

(١) قوله: «القول الثابت الذي ثبت بالحجة» لما فسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد والخبيثة بكلمة الشرك، فالمتجه تفسير القول الثابت بقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وإضلال الظالمين بإبقائهم على كلمة الشرك، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وأما التمسك بالحجة وتقليد الشيوخ فبعيد عن السياق. وفيه رد على أهل السنة المكتفين بالتقليد في تحقق الإيمان (ع).

ثباتهم وعزمهم، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: شكر نعمة الله، ﴿كُفْرًا﴾؛ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً؛ ونحوه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: شكر رزقكم؛ حيث وضعتم التكذيب موضعه، ووجه آخر: وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروا سلبوها، فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر، حاصلاً لهم الكفر بدل النعمة[1]، وهم أهل مكة: أسكنهم الله حرمه، وجعلهم قوّام بيته، وأكرمهم بمحمد ﷺ فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة؛ كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم، وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية: فمتعوا حتى حين، وقيل: هم متنصرة العرب: جبلة بن الأيهم وأصحابه، ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾: ممن تابعهم على الكفر، ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾: دار الهلاك، وعطف: ﴿جَهَنَّمَ﴾ على دار البوار عطف بيان، قرئ: (ليضلوا): بفتح الياء وضمها.

فان قلت: الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد، فما معنى اللام؟

قلت: لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد،/ ١٨٤أ كما كان الإكرام في قولك: جئتك لتكرمني، نتيجة المجيء، دخلته اللام وإن لم يكن غرضاً، على طريق التشبيه والتقريب، ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾: إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه، وهو أمر الشهوة، والمعنى: إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية؛ ونحوه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

---

(١) قال السمين الحلبي: وعلى هذا فلا يحتاج إلى حذف مضاف على هذا. انتهى. الدر المصون.

المقول محذوف[1]، لأن جواب (قل): يدل عليه؛ وتقديره: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أقيموا الصلاة وأنفقوا، ﴿يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا﴾: وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا، بمعنى: ليقيموا ولينفقوا، ويكون هذا هو المقول، قالوا: وإنما جاز حذف اللام؛ لأنّ الأمر الذي هو (قل): عوض منه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام، لم يجز.

فإن قلت: علام انتصب: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؟

قلت: على الحال، أي: ذوي سرّ وعلانية، بمعنى: مسرين ومعلنين، أو على الظرف، أي وقتي سر وعلانية، أو على المصدر، أي: إنفاق سر وإنفاق علانية، المعنى: إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب، والخلال: المخالة.

فإن قلت: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾[2]؟

قلت: من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها، وأمّا الإنفاق لوجه الله خالصاً؛ كقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال، أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات؛ وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله، وقرئ: «لا بيع فيه ولا خلال»، بالرفع.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا

---

(١) قال محمود: «المقول محذوف... إلخ» قال أحمد: وفي هذا الإعراب نظر، لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من الله تعالى، بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا، لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم، وخبر الله تعالى يجل عن الخلف، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الإعراب مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق، ويقوى بوجهين لطيفين، أحدهما: أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق المنوه بإيمانه عند الأمر، كهذه الآية وكقوله ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الثاني: تكرر مجيئه لموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله، وقد قالوا إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآي من هو بصدد الامتثال وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصدق، إما على العموم إن أريد، أو على الغالب، والله أعلم.

(٢) قوله: «بأنه لا بيع فيه ولا خلال» هذه القراءة بالبناء على الفتح (ع).

لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ٱللَّهِ﴾: مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾: خبره، و﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: بيان للزرق، أي: أخرج به رزقاً هو ثمرات، ويجوز أن يكون: (من الثمرات): مفعول أخرج، و﴿رِّزْقًا﴾: حالاً من المفعول، أو نصباً على المصدر من أخرج؛ لأنه في معنى رزق، ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: بقوله كن، ﴿دَآئِبَيْنِ﴾: يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض، والأبدان والنبات، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم[1]، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: من للتبعيض، أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه؛ نظراً في مصالحكم، وقرئ: «من كلّ بالتنوين»، وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال، أي: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون (ما): موصولة، على: وآتاكم من ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال، ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾: لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها؛ هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأمّا التفصيل: فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله، ﴿لَظَلُومٌ﴾: يظلم النعمة بإغفال شكرها، ﴿كَفَّارٌ﴾: شديد الكفران لها، وقيل: ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع، والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ يعني: البلد الحرام، زاده الله أمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم، عليه السلام، ﴿ءَامِنًا﴾: ذا أمن.

فإن قلت: أي فرق بين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، وبين قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؟

قلت: قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني: أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد

---

(١) قوله: «وسباتكم» في الصحاح: السبات النوم، وأصله الراحة، ومن قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً) (ع).

مخوف، فاجعله آمناً، ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾، وقرئ: «وأجنبني»، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه؛ فأهل الحجاز يقولون: «جنبني شره»: بالتشديد، وأهل نجد: «جنبني وأجنبني»، والمعنى: ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها، ﴿وَبَنِىَّ﴾: أراد بنيه من صلبه، وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً؛ واحتج بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾، ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم، قالوا: البيت حجر، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقال: دار بالبيت، ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: فأعوذ بك أن تعصمني[1]، وبنيَّ من ذلك؛ وإنما جعلن مضلات؛ لأنّ الناس ضلوا بسببهنّ، فكأنهنّ أضللنهم، كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرّتهم، أي: افتتنوا بها واغتروا بسببها، ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾: على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي، ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: هو بعضي لفرط اختصاصه بي وملابسته لي، وكذلك قوله: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» (٨١٢)، أي: ليس بعض المؤمنين، على أنّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم،

---

٨١٢ ـ أخرجه مسلم (١/ ٣٤٨ ـ الأبي) كتاب الإيمان: باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» حديث (١٠٢/ ١٦٤)، وأبو داود (٢/ ٢٩٤) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش حديث (٣٤٥٢)، والتّرمذي (٣/ ٥٩٧) كتاب البيوع: باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع حديث (١٣١٥)، وابن ماجه (٢/ ٧٤٩) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٤)، وأبو عوانة (١/ ٥٧)، وأحمد (٢/ ٢٤٢)، والحميدي (٢/ ٤٤٧) رقم (١٠٣٣)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٥٦٤)، وابن حِبان (٤٩٠٥ ـ الإحسان)، وابن منده في «الإيمان» رقم (٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢/ ١٣٤)، والحاكم (٢/ ٨ ـ ٩)، والبيهقي (٥/ ٣٢٠) كتاب البيوع، كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة به وقال التّرمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. قلت: وقد وهم رحمه الله في ذلك فالحديث في صحيح مسلم كما تقدم في التخريج. وللحديث شواهد من حديث ابن عمر وأبي بردة بن نيار وابن مسعود والحارث بن سويد وقيس بن أبي غرزة وأبي الحمراء وعائشة.

ـ حديث ابن عمر:

أخرجه أحمد (٢/ ٥٠) والبزار (٢/ ٨٢ ـ كشف) رقم (١٢٥٥) من طريق أبي معشر عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا» والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٨٨) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في «الأوسط» وفيه أبو معشر وهو صدوق وضعفه جماعة.

وللحديث طريق آخر عن ابن عمر

أخرجه الدارمي (٢/ ٢٤٨) كتاب البيوع: باب في النهي عن الغش، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٥١) من طريق يحيى بن المتوكل ثنا القاسم بن عبيد الله عن عمه سالم بن عبد الله عن ابن عمر =

---

(١) قوله: «فأعوذ بك أن تعصمني» لعله أن لا تعصمني (ع).

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي، وقيل: معناه: ومن عصاني فيما دون الشرك.

= به. ويحيى بن المتوكل قال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٥٦) ضعيف.

ـ حديث أبي بردة بن نيار:
أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٦) والبزار (١/ ٦٨ ـ كشف) رقم (٦٨) والطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٩٨) رقم (٥٢١) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٩٠) كلهم من طريق جميع بن عمير عن عمه يعني أبا بردة مرفوعاً.
وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣١): رواه البزار وفيه جميع بن عمير وثقه أبو حاتم وضعفه البخاري وغيره.
ـ حديث ابن مسعود:
أخرجه ابن حِبان (٥٦٧) والطبراني في «الكبير» (١٠٢٣٤) وفي «الصغير» (١/ ٢٦١) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ١٨٨ ـ ١٨٩) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٥٣) كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن زر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من غشنا فليس منا، والمكر والخديعة في النار».
ـ حديث الحارث بن سويد:
أخرجه الحاكم (٢/ ٩).
ـ حديث قيس بن أبي غرزة:
أخرجه أبو يَعلى (٢/ ٢٣٣) رقم (٩٣٣) من طريق الحكم بن عتيبة عن قيس بن أبي غرزة مرفوعاً بلفظ: «من غش المسلمين فليس منهم».
وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٨٢) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات وذكره الحافظ في «المطالب العالية» (١٣٦١) وعزاه إلى أبي يَعلى.
ـ حديث أبي الحمراء:
أخرجه ابن ماجه (٢/ ٧٤٩) كتاب التجارات: باب النهي عن الغش حديث (٢٢٢٥) من طريق أبي داود عن أبي الحمراء به مرفوعاً.
وأبو داود هو نفيع بن الحارث الأعمى متروك كَذّبه ابن معين وغيره.
ـ حديث عائشة:
أخرجه البزار (٢/ ٨٣ ـ كشف) رقم (١٢٥٦) وقال البزار: لا نعلمه عن عائشة إلا بهذا الإسناد والحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٨١) وقال: ورجاله ثقات.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن حِبان من حديث ابن مسعود وإسحاق والبزار من حديث ابن عمر. والبخاري في التاريخ. والطبراني في الأوسط من حديث البراء. والبزار من حديث عائشة. وابن أبي شيبة من حديث أبي الحمراء. والحاكم من رواية عمير بن سعيد النخعي وابن أبي شيبة من رواية جميع بن عمير عن خالد بن برزة، والطبراني من حديث أبي موسى، والبيهقي في الشعب من طريق حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كذلك أخرجه البيهقي في الشعب، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه. فلم يذكر عليا. وأخرجه أبو نعيم عن أنس وعن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي ربيعة عن جده به. انتهى.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾: بعض أولادي، وهم/ ١٨٤ب إسماعيل ومن ولد منه، ﴿بِوَادٍ﴾: هو وادي مكة، ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾: لا يكون فيه شيء من زرع قط؛ كقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، بمعنى: لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير، وقيل: للبيت المحرم، لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه، أو لأنه حرّم على الطوفان، أي: منع منه، كما سمي عتيقاً؛ لأنه أعتق منه فلم يستول عليه، ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: اللام متعلقة بأسكنت، أي: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع، مستسعدين بجوارك الكريم، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك، والطواف به، والركوع والسجود حوله، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك، ﴿أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾: أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض؛ ويدل عليه ما روي عن مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل (من): لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند، ويجوز أن يكون (من): للابتداء؛ كقولك: «القلب مني سقيم» تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس؛ وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة؛ لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة[1]، وقرئ: «آفدة»: بوزن عاقدة، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب كقولك: آدر، في أدؤر، والثاني: أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت، أي: جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم، وقرئ: «أفدة»، وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين، وأن يكون من أفد ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾: تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً؛ من قوله [من الكامل]:

. . . . . يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِيَّ الأَجْدَلِ[2]

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يظهر كونها للغاية، لأنه ليس لنا فعل يبتدأ فيه بغاية ينتهي إليها، إذ لا يصح جعل ابتداء الأفئدة من الناس»، انتهى. الدر المصون.

(٢) فإذا نبذت له الحصاة رأيته ... ينزو لوقعتها طمور الأخبل
وإذا يهب من المنام رأيته ... كرتوب كعب الساق ليس بزمل
وإذا رميت به الفجاج رأيته ... يهوي مخارمها هوي الأجدل =

وقرئ: «تَهْوِي إليهم»، على البناء للمفعول، من هوى إليه وأهواه غيره، وتهوى إليهم، من هوى يهوي إذا أحب، ضمن معنى تنزع فعدّى تعديته، ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: مع سكناهم وادياً ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم[1] ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن الله ـ عزّ وجلّ ـ أجاب دعوته، فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي: بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه[2] المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والحريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب ـ متعنا الله بسكنى حرمه ـ ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى، ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾: تعلم السرّ كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه؛ لأنّ غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك،

= وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

لأبي كبير الهذلي، يصف تأبط شرا بالتيقظ والشجاعة، يقول: إذا رميت له الحصاة مجرباً له هل هو نائم أو صاح، ينزو: أي يثب بسرعة، طمور الأخيل: أي وثوب الأخيل، أي ينهض كنهوضه: وهو طير تتشاءم منه العرب، وأصله من التخيل، وقيل من الخيلاء. ورتب رتوباً: انتصب انتصاباً وارتفع ارتفاعاً، أي: رأيته يرتفع عن الأرض كارتفاع كعب الساق. والزمل والزمال والزميل ـ بتشديد الميم فيها ـ: هو الضعيف الملتف بثيابه، ثم قال: وإذا قذفته في نواحي الأمكنة المتسعة، رأيته يهوي مخارمها، أي: يسرع في سلوك مسالكها الضيقة، كهوي الأجدل وهو الصقر، أي كإسراعه في الطيران. ويروى: الجندل وهو الحجر. والأسرة: خطوط الجبهة جمع سرار. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والمتهلل: اللامع، أو المرتفع الذي سيمطر. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت قاعدة أغزل عند رسول الله ﷺ وهو يخصف نعله، فتحضر جبينه عرقاً، فتولد في عيني نوراً، فجعلت أنظر إليه فقال: ما تنظرين؟ فقلت له ذلك، وقلت: أما والله لو رآك الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، فقال: وما قال؟ قلت: وإذا نظرت... البيت. فوضع ما في يده وقام فقبل ما بين عيني وقال: جزاك الله خيراً، ما سررت كسروري بكلامك.

ينظر: ديوان الهذليين (٢/ ٩٤)، البحر المحيط (٥/ ٤٢٩)، اللسان «خرم»، الدر المصون (٤/ ٢٧٤).

(١) قوله: «في واد يباب ليس فيه نجم» أي خراب. والنجم: نبات لا ساق له، كذا في الصحاح (ع).

(٢) قوله: «وهي اجتماع البواكير والفواكه» الباكورة: أول الفاكهة، كما في الصحاح (ع).

والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب؛ وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذللاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده؛ رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة، وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح، فأراد أن يذكره فقال: مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته ألاَّ يتكلم فيها، وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم، قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾: من كلام الله ـ عزّ وجلّ ـ تصديقاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، أو من كلام إبراهيم، يعني: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيْب من شيء في كل مكان، «ومن»: للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما، (على) في قوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾، بمعنى: مع؛ كقوله [من المنسرح]:

إِنِّي عَلَىٰ مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ[1]

وهو في موضع الحال، معناه: وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر، روي أنّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إِسْحَاق، وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإِسْحَاق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر/ ١٨٥أ حال الكبر؛ لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم، ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر لله ما أكرمه به من إجابته.

---

(١) ترين: أصله ترأيين كتفعلين، نقلت فتحة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت وحذفت الياء الأولى بعد قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. يقول: إني مع ما تنظرينه من كبري وهرمي الموجب للخرف عادة، عارف بالأمور متيقظ لها. وكنى عن ذلك بقوله: أعرف من أين تؤكل الكتف، أي: أعرف جواب هذا الاستفهام، ويروى: من حيث، فلعل من زائدة. قال بعضهم: تؤكل الكتف من أسفلها وبشق أكلها من أعلاها، وهو مثل يضرب للمجرب المتفطن للأمور.
ينظر: البحر (٥/ ٤٣٤)، روح المعاني (١٣/ ٢٤٢)، بلا نسبة في تاج العروس (كتف)، ولقيس بن الخطيم في ديوانه (ص ٢٣٩)، الدر المصون (٤/ ٢٧٥).

فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه.

قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله، ومنه: سمع الله لمن حمده، وفي الحديث: «مَا أَذِنَ الله لِشَيْءٍ كَإِذْنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»[1] (٨١٣).

فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟

قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميع الدعاء، وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل؛ كقولك: هذا ضروب زيداً، وضراب أخاه، ومنحار إبله، وحذر أموراً، ورحيم أباه، ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي، والمراد: سماع الله.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾: وبعض ذرّيتي، عطفاً على المنصوب في اجعلني؛ وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذرّيته كفار؛ وذلك قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: عبادتي، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم ٤٨]، في قراءة أبيّ: «ولأبويّ». وقرأ سعيد بن جبير: «ولوالدي»: على الإفراد، يعني: أباه، وقرأ الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ: ولولديّ، يعني: إسماعيل وإسحاق. وقرئ: «لوُلدي»: بضم الواو، والولد بمعنى: الولد، كالعدم والعدم، وقيل: جمع ولد، كأسد في أسد، وفي بعض المصاحف: «ولذرّيتي».

فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

قلت: هو من مجوّزات العقل[2]، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف، وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء، وقيل: بشرط الإسلام، ويأباه قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾

---

٨١٣ ـ أخرجه البخاري (١٣/٥١٨) كتاب التوحيد باب قول النبي ﷺ: الماهر بالقرآن حديث (٢٥٤٤)، ومسلم (١/ ٥٤٥) كتاب صلاة المسافرين: باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن حديث (٢٣٣/ ٧٩٢)، من حديث أبي هريرة.
وقال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ انتهى.

---

(١) قوله: «كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن» في الصحاح: كإذنه لمن يتغنى... إلخ (ع).

(٢) قوله: «هو من مجوزات العقل» يعني على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع، ومذهب أهل السنة أن لا حكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه، فافهم (ع).

[الممتحنة: ٤]؛ لأنه لو شرط الإسلام، لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل؛ والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها، ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوؤها، كأنها قامت على رجل، ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازيًا، أو يكون مثل: (واسئل القرية)، وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، الآية، رفعها الله فوضعها؛ حيث وضعها رزقاً للحرم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾؟

قلت: إن كان خطاباً لرسول الله ﷺ ففيه وجهان:

أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً؛ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، كما جاء في الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

والثاني: أنّ المراد بالنهي عن حسبانه غافلاً، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣] يريد الوعيد، ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطاباً لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه، وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه، وقرئ: «يؤخرهم»: بالنون والياء، ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: أبصارهم لا تقرّ في أماكنها من هول ما ترى، ﴿مُهْطِعِينَ﴾: مسرعين إلى الداعي، وقيل: الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف، ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾: رافعيها، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾: لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم، أي: لا يطرفون، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة

غير تحريك للأجفان، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم، الهواء: الخلاء الذي لم تشغله الأجرام، فوصف به فقيل: قلب فلان هواء: إذا كان جباناً لا قوّة في قلبه ولا جرأة؛ ويقال للأحمق ـ أيضاً ـ: قلبه هواء؛ قال زهير [من الوافر]:

. . . . . مِنَ الظُّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ[1]

لأنّ النعام مثل في الجبن والحمق؛ وقال حسان [من الوافر]:

. . . . . فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخْبٌ هَوَاءُ[2]

---

(١) كأن الرحل منها فوق صعل ... من الظلمان جؤجؤه هواءُ
أصك مصلم الأذنين أجنى ... له بالسن تنُّوم وآء

لزهير بن أبي سلمى يصف ناقته. والصعل: المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس. والظلمان: جمع ظليم وهو ولد النعام، والجؤجؤ: الصدر. والهواء: الخالي الفارغ. وجعل صدره فارغاً ليكون أسرع في السير إلى طعامه. والأصك: الذي تصطك ركبتاه عند المشي لطول رجليه. وصلمه: قطعه. والتصليم: مبالغة. ويقال: أجنى الثمر إذا أدرك، وأجنت الأرض: كثر كلؤها وخصبها. والسن، المكان المستوي واسم موضع بعينه. والتنوم ـ وزن تنور ـ: شجر تنفلق كمامه عن حب صغير تأكله أهل البادية، يغلب على لونه السواد. قيل: وهو شجر الشهدانج. والآء: جنس من الشجر واحده آءة. وقيل: ثمر ذلك الشجر يطلق على نوع من الصوت: والتنوم: فاعل أجني، أي كثر له في ذلك المكان هذان النوعان.

ينظر: ديوانه ص ٦٣، ولسان العرب: (أوأ)، (هوا)، ومقاييس اللغة: ٦/ ١٥، والمخصص: ٣/ ٦٤، ١٥/ ١٢٠، ومجمل اللغة ٤/ ٤٥٥، وتاج العروس (أوأ) (هوى).

(٢) ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركت عبيداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

لحسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه. وإلا للتنبيه، والمأمور بالإبلاغ غير معين، وكان الظن أن يقول: فإنه، أي: أبا سفيان، لكن خاطبه بالذم لأنه أغيظ. ويجوز أن المأمور أبو سفيان، فهو منادى يحذف حرف النداء. والمجوف والنخب والهواء: خالي الجوف، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة. وروي بدل هذا الشطر «مغلغلة فقد برح الخفاء» والمغلغلة: الحارة من الغلة بالضم، وهي شدة العطش والحرارة. وقيل: المنقولة من مكان لآخر، وبرح كسمع: ذهب وزال. وقيل: ظهر واتضح من براح الأرض وهو البارز منها، فالخفا بمعنى التستر أو السر. وإسناد الترك للسيوف مجاز عقلي، لأنها آلة للفعل. وعبيد بالتصغير قبيلة، وكذلك عبد الدار، وسادتها مبتدأ. والإماء خبره، والجملة في محل المفعول الثاني لتركت، أي صيرت عبيداً لا سادة لها إلا النساء، وصيرت عبد الدار كذلك، يعني: أننا أفنينا رجالهما الرؤساء الأشراف، فأشرافهما النساء لا غير، بل يجوز أنهم سواء الحرائر أيضاً، فلم يبق إلا الرقائق. وأتهجوه: استفهام توبيخي، والواو بعده للحال، أي: لا ينبغي ذلك شر وخير، من قبيل أفعل التفضيل، واختصا بحذف همزتهما تخفيفاً لكثرة =

وعن ابن جريج: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾: صفر من الخير خاوية منه، وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾: مفعول ثان لأنذر، وهو يوم القيامة، ومعنى ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾: ردّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك، واتباع رسلك، أو أريد باليوم: يوم هلاكهم/ ١٨٥ب بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدّة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب؛ كقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠]، ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾: على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال؛ حيث بنوا

= استعمالهما، لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان، والجملة دعائية، دعا عليه بأن يكون فداة لرسول الله ﷺ، وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الإنصاف في الكلام، ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا: هذا نصف بيت قالته العرب، فعليك بالإنصاف وأمن يهجو: استفهام إنكاري، أي ليس من يهجوه منكم ومن يمدحه وينصره منا مستويين. ويحتمل أن الهمزة للتنبيه، أو للنداء، والمنادى محذوف، أي: يا قوم أبي سفيان إن الذي يهجو رسول الله منكم والذي يمدحه وينصره منكم مستويان في عدم الاكتراث بهما وروي: فمن، ولا بد من تقدير، أي: من يهجوه ويخذله منكم ليقابل الخذلان النصر كالهجو والمدح، ثم إن في هذا دليلاً على جواز حذف الموصول، وقد أجازه الكوفيون والأخفش، وتبعهم أبو مالك، وشرط كونه معطوفاً على موصول آخر كما هنا. وقوله: ووالده، أي والد أمي. ويروى: ووالدتي. والوقاء: ما يتوقى به المكروه. كالترس وزن الحزام والرباط للمفعول به الفعل، فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم الآلة. ورأيت في كلام الزمخشري ما يفيد تسمية هذا الوزن باسم المفعول. وفي الهمع ما يفيد أنه جاء شاذا من أوزان الآلة، كأراث لما تؤرث به النار، أي تضرم به، وسراد لما يسرد به، أي يحزز به. ولما سمع ﷺ قوله: «وعند الله في ذلك الجزاء» قال: جزاك الله الجنة بإحسان. ولما سمع قوله: «فإن أبي» قال: وقاك الله حر النار يا حسان. وتقريره ﷺ على المكافأة بالذم، يدل على الجواز.

ينظر: ديوانه ص ٧٥، ولسان العرب: (جوف)، (هوا)، وكتاب العين ٤/ ١٠٤، وتهذيب اللغة ٦/ ٤٩٢، ١١/ ٢٠٩، وأساس البلاغة ص ٧٠ (جوف)، وتاج العروس (برج)، (جوف)، والمخصص ١٥/ ١٢٠، وديوان الأدب: ٣/ ١٣٨.

شديداً وأمّلوا بعيداً، و﴿مَا لَكُم﴾: جواب القسم؛ وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: (أقسمتم)، ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: مالنا، ﴿مِن زَوَالٍ﴾، والمعنى: أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى يعني: كفرهم بالبعث؛ كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ [النحل: ٣٨]، يقال: سكن الدار وسكن فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]؛ لأنّ السكنى من السكون الذي هو اللبث، والأصل: تعدّيه بفي؛ كقولك: قرّ في الدار وغني فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوّأها وأوطنها، ويجوز أن يكون: سكنوا[1]، من السكون، أي: قرّوا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأوّلون من أيام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾: بالإخبار والمشاهدة، ﴿كَيْفَ﴾: أهلكناهم وانتقمنا منهم، وقرئ: «ونبين لكم»: بالنون، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: صفات ما فعلوا، وما فعل بهم، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم، ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أي: مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾: لا يخلو إمّا أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأوّل، على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم[2] به، وهو عذابهم[3] الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾: وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال، معدًّا لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم، على أنّ الجبال مثل لآيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً؛ وتنصره قراءة ابن مسعود: «وما كان مكرهم»، وقرئ: «لتزول»: بلام الابتداء، على: وإن كان مكرهم من الشدّة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع

---

(١) قوله: «ويجوز أن يكون سكنوا» لعله: سكنتم. (ع)

(٢) قوله: «وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به» الذي في الصحاح المكر: الاحتيال والخديعة، وقد مكر به. والمكر أيضاً: المغرة، وقد مكره فامتكر، أي خضبه فاختضب اهـ، وهو يفيد أن المكر بمعنى الاحتيال لا يتعدى بنفسه، فتدبر (ع).

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وهذا لا يصح إلا إن كان «مكر» يتعدى بنفسه، كما قال هو إذ قدّر: يمكرهم به. والمحفوظ أن «مكر» لا يتعدى إلى مفعول به بنفسه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وتقول: «زيد ممكور به» ولا يحفظ «زيد ممكور بسبب كذا». انتهى. الدر المصون.

من أماكنها، وقرأ علي وعمر ـ رضي الله عنهما ـ: وإن كاد مكرهم، ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ يعني: قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٥١].

فإن قلت: هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأوّل[1]؟

قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١]، ثم قال: (رسله): ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً ـ وليس من شأنه إخلاف المواعيد ـ كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته؟ وقرئ: «مخلف وعده رسله»: بجرّ الرسل، ونصب الوعد، وهذه في الضعف كمن قرأ: ﴿قتل أولادهم وشركائهم﴾ [الأنعام: ١٣٧]. ﴿عَزِيزٌ﴾: غالب لا يماكر، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: لأوليائه من أعدائه.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾: انتصابه على البدل من يوم يأتيهم، أو على الظرف للانتقام، والمعنى: يوم تبدّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة؛ وكذلك السموات، والتبديل: التغيير، وقد يكون في الذوات؛ كقولك: بدلت الدراهم دنانير، ومنه: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، و﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦] وفي الأوصاف؛ كقولك: بذلت الحلقة خاتماً، إذا أذبتها وسويتها خاتماً، فنقلتها من شكل إلى شكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، واختلف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تبدّل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها، وتسوّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت، وعن ابن عباس: هي تلك الأرض وإنما تغير؛ وأنشد [من الطويل]:

---

(١) قال محمود: «إن قلت لم قدم المفعول الثاني على الأول... إلخ»؟ قال أحمد: وفيما قاله نظر؛ لأن الفعل متى تقيد بمفعول انقطع إطلاقه، فليس تقديم الوعد في الآية دليلاً على إطلاق الفعل باعتبار الموعود، حتى يكون ذكر الرسل باثناً كالأجنبي من الإطلاق الأول، ولا فرق في المعنى الذي ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره ولا يفيد تقديم المفعول الثاني إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم والأمر بهذه المثابة في الآية، لأنها وردت في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله تعالى به على ألسنة الرسل، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد. وأما كونه على ألسنة الرسل فذلك أمر لا يقف التخويف عليه ولا بد، حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه حسيباً كافياً، والله أعلم.

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ وَلاَ الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ[1]

وتبدّل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً، وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخر، وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: تبدّل أرضاً من فضة، وسموات من ذهب، وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف، وقرئ: «يوم نبدّل الأرض»: بالنون[2].

فإن قلت: كيف قال: ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾؟

قلت: هو كقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ لأنّ الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعازّ فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدّة، ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: قرن بعضهم مع بعض، أو مع الشياطين، أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين، وقوله: ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: إما أن يتعلق بمقرّنين، أي: يقرنون في الأصفاد، وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرّنين مصفدين، والأصفاد: القيود، وقيل: الأغلال؛/ ١٨٦أ وأنشد لسلامة بن جندل [من الوافر]:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لاَقَى صِفَاداً يَعَضُّ بِسَاعِدٍ وَبِعَظْمِ سَاقِ[3]

القطران: فيه ثلاثة لغات: قَطران، وقِطران، وقِطْران: بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران، وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع

---

(١) يقول: ليس الناس اليوم هم الناس الذين عهدتهم سابقاً، لفناء الأحياء من بينهم، وليست الدار اليوم هي الدار التي كنت تعلمها، لتبدل أحوالها وتغير أوصافها.
ينظر: مجالس ثعلب (١/ ٤٩)، روح المعاني (١٣/ ٢٥٤)، الدر المصون (٤/ ٢٨١).

(٢) قوله: «وقرئ نبدل الأرض بالنون» لعله ونصب الأرض والسموات، فلتحرر القراءة (ع).

(٣) لسلامة بن جندل. وزيد الخيل: هو الذي سماه النبي ﷺ زيد الخير. قد لاقى: أي نال من أعدائه صفاداً، أي قيداً وغلا. واستعار العض لقرص الصفاد اليابس الصلب على طريق التصريحية. والباء للإلصاق، وأقحم لفظ العظم للمبالغة في العض حتى وصل العظم.

نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه، وقرئ: «من قطرآن»، والقطر: النحاس أو الصفر المذاب، «والآني»: المتناهي حرّه، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٢٤]، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]؛ لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه؛ ولذلك قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [القمر: ٧]، وقرئ: «وتغشى وجوههم»: بمعنى: تتغشى، أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل، ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾: مجرمة، ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾: أو كل نفس من مجرمة ومطيعة؛ لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾: كفاية في التذكير والموعظة، يعني: بهذا ما وصفه من قوله: (ولا تحسبن) إلى قوله: (سريع الحساب)، ﴿وَلِيُنذَرُوا۟﴾: معطوف على محذوف، أي: لينصحوا ولينذروا، ﴿به﴾: بهذا البلاغ، وقرئ: «وليَنذروا»: بفتح الياء: من نذر به إذا علمه[1] واستعدّله، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأنّ الخشية أمّ الخير كله.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ أُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ عَشْر حَسَنَاتٍ بَعَدَد كُلِّ مَنْ عَبَدَ الأَصْنَامَ وَعَدَدِ مَنْ لَمْ يَعْبُدْ» (٨١٤).

---

٨١٤ ـ تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة، وقد تكلمنا عليه وعلى أسانيده عند الحديث رقم (٣٤٦).
وقال الحافظ في تخريج الكشاف:
يأتي تخريجه في آخر الكتاب. انتهى.

---

(١) قوله: «من نذر به إذا علمه» في الصحاح: نذر القوم بالعدو ـ بكسر الذال ـ إذا علموا (ع).